تراث الأندلس

إن بلداً كأسبانيا لن يستطيع أن يستكين لحظ تافه . فهذا المضلع الشاسع القائم عند طرف أوروبا الغربى ، ذو التضاريس المتعرجة المتعددة والآفاق المتباينة ، يؤلف مجموعة جغرافية هى أقل المجموعات تناسقاً . فالحياة تختلف فيه بين إقليم وآخر ؛ فهى سهلة ناعمة هنا ، وخشنة قاسية هناك . ويتفاوت أهلها تفاوتاً عميقاً تبعاً لجنسهم وأرومتهم ؛ وقد لا توجد بقعة على وجه الأرض مثلها تتباين فيها خصائص أهلها ، حتى لقد تؤدى إلى الاصطدام أحيانا بطريقة مروعة . وقد كان حظها — حتى نهاية العصر المتوسط على الأقل — خاضعا لمركزها الجغرافى ولظرف تاريخى غير عادى عظيم المدى : هو وجود الإسلام على جزء كبير من أرضها ، فكان ذلك يتطلب من الفريق الآخر بذل مجهود أشبه بمجهود الحروب الصليبية ، واستذكاء هذا المجهود عدة أجيال متعاقبة .

إن لأسبانيا واجهتين بحريتين ، تشرف إحداهما على البحر الأبيض المتوسط ، وهو طريق المدنية القديمة ، وتطل الأخرى على المحيط الأطلنطى الذى بقى أمداً طويلا محيط الظلمات ومقر المجهول المخيف . وتتصل ببقية أوروبا بحاجز مؤلف من سلسلة جبال وعرة عسيرة الاجتياز هى جبال البرانس . أما إلى الجنوب ، فانها على العكس ، تكاد تلمس أفريقيا ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق جبل طارق . إنها فى الواقع جزيرة ، وهى جزيرة بغير ما شك هائلة ، ولكنها جزيرة مشاعة — بفضل تكوينها الطبيعى — بين أوربا وأفريقيا . فهى بمثابة المزلاج ؛ لأنها توصد باب البحر الأبيض المتوسط فى الغرب ، وهى بمثابة الجسر لأنها على الرغم من العوائق الطبيعية التى تعزلها عن بقية أوربا وأفريقيا ، بمثابة الطريق الأرضى الوحيد الذى يصل بين هذين الجزأين من العالم ، والحضارات التى تستطيعان تمثيلها .

لقد أدرك العرب تمام الإدراك صبغة أسبانيا الجزائرية إذا أطلقوا عليها اسم « جزيرة الأندلس » . ويخال أنهم أدركوا بسرعة أن هذه الولاية الشاذة عن إمبراطوريتهم والتى ضمت إليها بفضل مغامرة فجائية جريئة غير منتظرة ، كأنها ، فى تلك الإمبراطورية ، بمثابة «زحف» حقيقى إلى جوار الغرب المسيحى مباشرة ، وإلى أبواب أوربا التى كانوا يجهلونها ويقتصرون على تسميتها ، بعير تحديد ، باسم « الأرض الكبيرة » . وعند ما انشقت الأندلس سياسيا عن تلك الإمبراطورية ، بعد بضع عشرة سنة ، لتصبح دولة لأحد الأمراء المهاجرين من الأسرة الأموية التى حكمت فى سوريا ، وجدت هوة زادت مع الأجيال عمقاً واتساعا ، فلم تلبث أن انفصلت عن الشرق العربى فزاد صبغتها الجزائرية ، وفى نفس الوقت ، زادت خصائصها .

على أن خصائص أسبانيا الإسلامية لم تنشأ فقط عن عزلتها عن بقية العالم العربى والبون الشاسع الذى يفصلها عن الشرق ، بل كانت هناك شتى الأسباب الداخلية : اختلاط الأجناس فى شعب قليل التجانس مؤلف من أقلية من العرب ، ومن البربر الذين جاءوا من أفريقيا الشمالية ، ومن الفرنج ، ومن السلاف ، ولكن بصفة خاصة من جمهور الأهالى الذين اعتنقوا الإسلام ، والمولدين ؛ ثم وجود جماعات هامة من سكان المدن والريف الذى ظلوا على مسيحيتهم دون أن يضطهدوا بفضل التقليد الحر فى النظام السياسى الأندلسى ؛ ثم اختلاط طوائف يهودية نشيطة فى وسط المجتمعات ، أيًّا كانت أهميتها ، تحت حماية السلطة المركزية الإسلامية . وهى خصائص ترجع أيضاً إلى استعمال اللغة الرومانية المشتقة من اللاتينية ، إلى جانب اللغة العربية ، وأحياناً لغة البربر ؛ وهى خصائص ترجع فى النهاية — وهذا هو العامل الجوهرى بغير شك — إلى الإطار الجغرافى الذى يختلف جدًّا ويمتاز كثيراً فى مجموعه عن إطار جميع الجهات الأخرى من دار الإسلام . وإنه لمن المؤكد أن سكان المدن ، والقرويين ، وسكان الجبال ، والفلاحين المقيدين بأعمال الأرض ، كل هذه المجموعة التى كانت تؤلف الشعب الأندلسى فى جنوب شبه الجزيرة ، فى العصر الإسلامى ، كانوا أقل شبها منهم اليوم بمواطنيهم فى أودية أسبانيا الوسطى المرتفعة ، وأقل ذلك طبعاً ، بأعدائهم اللُّدّ فى مملكة ليون وقشتاله المسيحيتين . على أن أندلسى السهول والجبال والمناطق الساحلية الخصبة أو أعالى الجبال الوعرة القاحلة ، كانوا مع ذلك متقاربى

الشبه إلى حد أنه قد رسخ فى أذهانهم ، رويداً رويداً وبغير ما إدراك ، شعور بأنهم ووطنهم يؤلفون شيئاً فذّاً فى عالم الإسلام .

على أنه يجب الاعتراف مع ذلك بأن الأدب العربى فى أسبانيا لم يعبر صراحة عن هذا الشعور إلا نادراً . وإنه لخليق أن نذكر بإكبار محافظة الأندلس — إبان تاريخها بأكمله — على تمسكها ببقية العالم العربى وعبقرية حضارته تمسكاً يملؤه الإجلال القريب من الشعور البنوى . ولقد تجلى هذا التمسك ، أول ما تجلى ، فى الدين . فما أن اعتنقت أسبانيا الإسلام حتى جاهرت بحزم بأنها محافظة ، وظلت بعد ذلك مرتبطة ، من ناحية السنّة والشرع ، بتقاليد العصور الأولى . وشاع المذهب المالكى فى جميع أنحاء الأندلس حتى النهاية . واهتم بنشاط لا يعتوره وهن بقمع كل محاولة ترمى إلى نشر التيارات الجديدة . واضطهد الزندقة . واحتفظ للبلاد بتعلقها الوثيق بأهداب الدين . وحارب بقسوة المفكرين الذين كانوا يسعون إلى التحرر من قيوده كابن مسرة وابن حزم دون أن نذكر غيرهما . وتخف تلك الشدة ردحاً من الزمن خلال حكم المرابطين ؛ إلى أن جاء الموحدون وفرضوا على الأندلس سنّة التوحيد أشد صرامة وقسوة .

على أن هـذا الاتجاه المحافظ يتجلى كذلك فى أسبانيا فى عدة نواح غير الدين . أما من ناحية الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فاننا لو نظرنا إلى تلك البلاد عن كثب فإننا نجد أنها تظهر — حتى القرن الثانى عشر على الأقل — بمظهر عتيق جدّاً هو نفس الذى ظلت تحافظ عليه مراكش الوريثة الفعلية للحضارة الأسبانية الإسلامية وعقائدها إلى عهد قريب جدّاً ، وظلت مدنها الكبيرة ، فاس ، ورباط ، وتطوان بصفة خاصة ، تحافظ على مظهرها الوفى للمدن الأندلسية . ففى هـذه المدن ، وفى خلال العصر المتوسط من أوله إلى نهايته ، ظلت إحدى طبقات المجتمع ، وهى طبقة الفقهاء ، تتمتع بمكانة ممتازة . ولم تكن هذه التسمية تشمل علماء الشرع فقط ، ولـكنها تتجاوزهم إلى جميع ممثلى العلوم العربية الدينية كما كانت تزدهر ، فى نفس الوقت ، فى الشرق ؛ أما فى أسبانيا ، فيجدر القول بأن عدد الفقهاء من أصل بربرى أو المولدين كان يزيد على من كانوا من أصل عربى .

وهذا الاتجاه المحافظ الذى يقوم على احترام التقاليد الشرقية ، يفسر أيضاً

لماذا ظل عدد كبير من المعاهد الإسلامية القديمة قائماً فى أسبانيا فى حين أنها كانت ، فى بقية العالم العربى ، تنهار شيئاً فشيئاً وتتلاشى . إننا نعلم إلى أى حد من الغيرة استطاعت أسبانيا أن تصون التراث الذى نقلته إليها خلافة دمشق وتحتفظ به كاملا ، وإن مجرد بقاء « تقليد سورى » قائماً واستمراره أمداً طويلا ، لهو من الصفات البارزة للحضارة الأندلسية ، حتى فى الوقت الذى اضطرت فيه تلك الحضارة إلى قبول ما دخل عليها ، وبصفة خاصة ، فى الوقت الذى تركت فيه بعض تيارات حضارة بغداد — المتشبعة بدورها بالحضارة الفارسية — تطغى عليها .

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه — فى عالم الأدب — أن كف إلى الأبد عن الإنتاج الممثل للعبقرية الأندلسية على حقيقتها ، وظل الأدب العربى الأسبانى ، حقبة طويلة ، لايؤلف إلا جزءاً من مجموع الأدب العربى وإن كان بالفعل مشرفاً فهو عار عن كل شخصية . وكان يخال أن أغلب الكتاب فى أسبانيا الإسلامية ، وفى جميع العصور ، قد أجمعوا على عدم الاهتمام — إلا فى بعض مؤلفاتهم المتأثرة فى النثر الفنى والنظم العامى — بالوسط الجغرافى والمركب الجنسى المميزين لهم واللذين يتألف منهما إطار حياتهم اليومية . فقد كانوا يؤثرون الانتقال بالفكر إلى شرق كان أكثرهم لايعلمون عنه بمعلومات أكثر مما هو مدون فى الكتب ليستلهموا منه نفثات وحيهم . لقد ازدروا الموارد التى تنطوى عليها تربتهم الخصبة العذراء ، ومالوا إلى سبر غور غيرها مما نفد استغلاله منذ عهد بعيد ونضب معينه . وكان اللغويون وكتاب النحو والعروض ، ومصنفو المعاجم ، وشراح الغرر الأدبية ، يكتبون فى أسبانيا وهم ينتقلون بشخصيتهم إلى بلاد العرب أو العراق . فكاتب مثل ابن عبد ربه يهتم بوضع ديوان من الشعر الشرقى ، ولغوى مثل ابن سيده يضع موسوعته دون أن تجد فيه اللغة العربية الأندلسية ، وهى لغته الشخصية ، أدنى مجال . بل الشعراء أنفسهم ، فقد كان أكثرهم يرتاح إلى الوضع الذى جرى عليه أسلافهم الشرقيون ، وكان لابد لهم من وقت طويل ليدركوا فى النهاية ، أنه توجد ، تحت أنظارهم ، طبيعة منسجمة جميلة جديرة بأن توصف هى أيضاً دون أن تفقد من قيمتها . بل إنهم ، عندما أدركوا ذلك ، كانوا لايحسنون التخلص دائماً من تأثير التقاليد الشرقية المستبد والذى كان يتجلى فى شكل استعارات أدبية ، وذكريات ،

واستشهادات . وكثيراً مايرى الإنسان نفسه أمام مقتبسات أو كتابات أحسن فيها التلاميذ تقليد أساتذتهم .

ولن تكون مقاومة هذا الاتجاه دائما إلا مجرد محاولات فردية . فبعض النقاد ، وبعض كتاب المختارات الشعرية ، أمثال الفتح بن خاقان وابن بسام ، يشيرون أحياناً إلى المحاولات المتواضعة التى يقوم بها بعض الأدباء الذين يفكرون فى التخلص من قيود أدب كلاسيكى لا تناله يد ووصل إلى حد الاتقان . على أن مسألة ابن حزم ، الذى يقرر فى مقدمة « طوق الحمامة » بأنه أندلسى ، وأنه لا شأن له باستلهام الوحى بذكر صحراء العرب والبدو الذين يخترقونها ، ستظل مسألة فردية للغاية ، وستظل أكثر البحوث الملهمة مقترنة بالعالم العربى الشرقى .

وكان لابد أن تزدهر أنواع جديدة من الأدب ذات صبغة شعبية وموجهة إلى جمهور أكثر انتشاراً لا إلى فئة مختارة ذات ثقافة كلاسيكية ، ليتم التوازن إلى حد ما ، مع ذلك التمسك بالمدارك التقليدية البحتة . وإننى أقصد بصفة خاصة ، وبدون إفاضة هنا ، أنواع النظم المعروفة بالموشحات والزجل التى زانها كثير من الأندلسيين ، وبصفة خاصة ، أبو بكر بن قزمان . لقد يتسنى قريباً ، متى عرفت مؤلفات هذا الشاعر معرفه تامة ، أن تعرض بوضوح تلك المسألة المركبة التى طالما نوقشت ، وهى احتمال تأثير شعر الزجالين الأندلسيين فى المداحين البروفانسيين ، وتأثير الشعر العربى بلهجته الأسبانية فى الشعر الرومانى فى الغزل الرقيق . ويجدر بالذكر هنا أن هذه الأنواع الجديدة ، بمرورها السريع من أسبانيا إلى الشرق ، بتيار معكوس ، إذا صح هذا التعبير ، وانتشارها العظيم فى الحال ، قد توجد تعليلا قيما يجعلنا نفرض أن هناك تأثيرات أندلسية كان يمكن أن تسيطر على العالم العربى لو أن أسبانيا — بعد أن تكون قد جددت نفسها — أرادت أن تعنى بذلك .

على أن دورها الحقيقى حيال الحضارة العربية كان غير ذلك ، بل ربما كانت قد فهمت هذا الأمر فى شىء من الغموض . إن دورها الحقيقى ، الذى كان يجب أن تؤديه كاملا ، هو أن تشرق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، على غرب أوروبا ، وأن تنقل إليه على الأقل جزءاً من التراث الذى ورثته بدورها عن الشرق واحتفظت به بشغف فى أرضها ، سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

فى أسبانيا بالطبع ، وبعد مرور مايقرب من نصف الالف من السنوات منذ نهاية استرداد أسبانيا نهائيا ، يظل تراث الأندلس خالداً وأقرب منالا ، فأثره العميق مازال واضحا فى جميع أنحاء شبه جزيرة إيبريا ، ولـكن ، كما هو طبيعى ، فى المقاطعات القبلية والشرقية التى ظلت تدين بالإسلام طويلا . وهناك نكهة من العربية تضوع فى جو كثير من المدن ، كبيرة وصغيرة ، لم يتغير فى الغالب تركيبها منذ العصر الإسلامى . إن طابع أسبانيا العربية يتجلى فى الفن الشعبى والاصطلاحات الصناعية ، وطرق استغلال الأرض ، وطرق الزراعة والرى . لقـد أثر هذا الطابع تأثيراً عميقاً فى الخرافات الشعبية ، وموسيقاه ، بل فى طريقة المعيشة والتصرف والتفكير عند جماعات هامة من الشعب . إن اللغة العربية الأندلسية ، باصطلاحاتها اللفظية الخاصة ومقاييسها الخطابية ، قد ساعدت كثيراً على تكوين مفردات لغـة قشتاله ، وهى كما هو معلوم ، لغة أسبانيا الوطنية ؛ على أن الـكلام الدارج فى بلنسية ومرسية وغرناطة يشتمل على نسبة أكبر من الألفاظ العربية . هذه الاستعارات المباشرة تؤلف معجماً متنوعاً جدًّا ؛ إذ يتضمن الاصطلاحات الفنية الزراعية ، وأسماء الأعشاب والنباتات ، والأشجار ، والفاكهة ، والأقمشـة ، والأثاث ، والألوان ، بل تسمية مئات من المعاهد العامة ، مع معاهد الموظفين التابعين . إن جزءاً كبيراً من الـكلمات والاصطلاحات لأسماء الأثاث الفاخر والزينة ما زالت إلى اليوم من مصدر عربى . وإنه ليس من الجرأة فى شىء أن نستنبط أن الأسماء قد مرت إلى أسبانيا المسيحية فى نفس الوقت الذى مرت فيه المسميات ، وأنه اعتباراً من القرن العاشر على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة ، وأشبيلية ، وطليطلة ، وسرقسطه الإسلامية فى دور الأمراء المسيحيين فى شمال البلاد ، حيث حملت للمرة الأولى ، إلى أرستوقراطية تملؤها الفضائل الحربية ولـكنها غير مثقفة ، معنى البذخ والترف ، أو ما هو أبسط ، معنى الرفاهية والراحة . وبعد قليل من تحرير ولايات أسبانيا الوسـطى وعودتها إلى أحضان المسيحية ، لعبت التأثيرات كذلك بقوة أشد ، خصوصاً عن طريق المستعربين الذين ، مع إنكارهم للإسلام ، لم يتخلوا إطلاقاً عن ثقافته ولغته . إن فى استمرار استعمال اللغة العربية فى جميع الاتفاقات ، وفى جميع عقود البيع فى طليطلة زهاء جيلين أو ثلاثة أجيال بعد فتحها التاريخى بمعرفة الفونس السادس عام ١٠٨٥ ، لدليل واضح على الطابع

الذى خلفته هذه الحضارة . وبعد ذلك العهد أيضاً ، حين تلاشى استعمال العربية أمام الأسبانية عند طوائف الموريسك الذين ظلوا على إسلامهم ، فإن الكتابة بالعربية ، لا باللاتينيـة ، هى التى كانت تستعمل لتحديد النطق ؛ وبالحروف العربية أيضاً كانت تدون كتب التعاليم المسيحية ، ومختارات الصلوات ، بل كذلك بعض المؤلفات أو المستندات ذات الصبغة العلمانية .

فى نقل هذا التراث الإسلامى الأندلسى ، يجب أن يراعى ، إلى جانب الدور الذى لعبه المستعربون ، الدور الذى لعبه الوسطاء اليهود بين الثقافتين . كان يهود أسبانيا الذين يتكلمون لغتين (خلاف العبرية لغتهم الدينية) كثيرى التنقل ، بحجة الأعمال ، من الولايات الإسلامية إلى الولايات المسيحية ؛ وكانوا كثيراً ما يتجاوزونهـا إلى فرنسا حيث كان يجذبهم وجود طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروفانس .

إنه لابد من صفحات كثيرة لكى نحلل تماماً الأسباب المتعددة التى سهلت بل فرضت أيضاً ، بصفة عامة وبطريقة غير مباشرة وبمساعدة المراحل المتعاقبة ، الحصص التى قدمتها الحضارة الإسلامية لأوربا الغربية التى لم تفكر إطلاقاً فى نبذها بسبب مواردها . إن ما يهم هو أن نحاول ، فى مقال بسيط ، أن نستخلص الدرس الذى تتضمنه هذه الحصص وتنطوى عليه .

إن المؤرخين يدركون اليوم — وتلك نغمة جديدة — أن أوربا ، اعتباراً من القرن الثانى عشر ، لم تحصل من انتصاراتها الحربية على الإسلام ، سواء فى غرب البحر الأبيض المتوسط أو فى شرقه ، على أرباح مادية فقط ، ولكنها حصلت أيضاً على أرباح لاتقل شأناً ، إذ هيأت لها الفرصة لتفتح عينيها على عالم آخر وتوسع ، بطريقة عجيبة ، أفق مداركها العقلية . لقد استطاعوا أن يقولوا ، وليس ما قالوه اغتباطاً ، إنه وإن كان من غير الحكمة أن يسند إلى علماء الإسلام الفضل الوحيد فى كثير من الاستكشافات المنسوبة إليهم بحكم التقاليد ، سواء فى عالم الفلسفة أو العلوم الصحيحة ، إلا أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنهم ، فى الشرق وبصفة خاصة فى أسبانيا ، قد أذكوا بنشاطهم الذى لم يعتوره كلل أو ملل ، شعلة لولاهم لأوشكت أن تنطفىء : وهى النظر إلى الأمور نظرة علمية . ومن ثم ، هدوا أوربا إلى الطريق ، ووضعوا فى متناول يدها مجموعة من المؤلفات الرئيسية ، وقطعوا شوطاً بعيداً فى طريقة معرفة اللغات والآداب القديمة وفى طريق النهضة العلمية.

فى القرن الثانى عشر إذن ، وبينما كانت الممتلكات الإسلامية فى الأندلس قد تضاءلت تماماً ، بدأ يتجلى تعاون الثقافتين ، العربية واللاتينية ، تعاوناً وثيقاً مثمراً . لن تكفى الإشارة مطلقا إلى أهمية مدرسة المترجمين التى أسسها أمير أسبانى مثقف هو الفونس العاشر العالم ، وأدارها تحت رعايته فى طليطلة ابتداء من عام ١١٣٠ . فقد صدرت عن هذا المجمع المنقب الذى تعاون فيه المسلمون واليهود والمسيحيون ، عدة مؤلفات علمية كانت إلى ذلك العهد مجهولة فى أوربا ، ونقلت إلى الغرب : كمؤلفات أُقليدس ، وبطليموس الإسكندرى ، والخوارزمى ومسلمة الأندلسى .

إن يكن دور أسبانيا الإسلامية ، بحسب الحوادث والأزمنة ، دور ملهمة للمبادئ التى تجلت عنها عبقريتها بالذات ، أو ، مع التواضع ، إن تكن قد اتخذت مرحلة للعلوم العربية والثقافة الشرقية ، فإن فضلها فى ذلك لن يكون أقل أثراً أوشهرة ، وإنه ليكفى تماماً ليسوّغ ذلك الحب الرقيق الطاهر الذى يبديه نحوها جميع ممثلى الثقافة العربية العصرية ، والفلاسفة ، والعلماء ، ونقاد الأدب ، وكذلك الشعراء والروائيون ، وكتّاب المسرح . فى اليوم الذى تقوم فيه مصر بصفة خاصة ، بالمهمة التى تهيأت لها بكرم ونبل لتنشر المؤلفات الرئيسية العديدة التى لم تنشر بعدُ عن الأدب الأندلسى والتى تتضمن لمحة من الحضارة الهسبانية ، فى ذلك اليوم يتجلى تراث الأندلس الروحى أكثر مما هو عليه ، ويسترد مكانته الكاملة ، ويصبح خط اتصال أوجدته العناية بين الشرق والغرب عند حدود الأزمنة العصرية .

ا . ليفى - بروفنسال

نقلها إلى العربية سنيم سعده